«القارئ والنص»

استجابة مُتلق

١

د. عبدالنبي اصطيف

يكتب ستانلي فيش Stanley E. Fish استاذ الانكليزية في جامعة جونز هوبكنز وابرز اعمدة ما يسمى بنقد استجابة القارىء Reader-Response Criticism في النقد الامريكي المعاصر ، وصاحب ما يسمى بالاسلوبيات التاثيرية Affective Stylistics في كتابه « هل ثمة نص في هذا الصف/الصنف ؟ » :

« اذا ما كان لاحد ان يسال في هذه اللحظة : « ماذا تفعل »، فانه يمكنك ان تجيب : « انا أقرا » ، وبالتالي تعترف بحقيقة ان القراءة نشاط ، شيء تفعله . فما من احد يمكن ان يحاج بان فعل القراءة يتم بمعزل عن شخص ما يقرا ـ كيف يمكن ان تميز الرقص عن الراقص ؟ ـ ولكن عندما ياتي الامر الى اصدار بيانات تحليلية عن الناتج النهائي للقراءة (المعنى او الفهم) فان القارىء ـ وعلى نحو غريب بما فيه الكفاية ـ فان القارىء ينسى عادة أو يتجاهل » (١) .

ولذلك فان قارىء مجلة المعرفة ، لا يمكن له الا أن يُسرّ ببحث الدكتور نعيم اليافي المعنون بـ « **القارىء والنص** »(٢) ، لتنبهه الى اهمية القارىء من جهة ؛ ولشجاعته في ارتياد ارض تكاد تكون بكرا في النقد العربي الحديث(٣) من جهة اخرى ؛ ولجديته في اجتهاداته الكثيرة فيه من جهة ثالثة ، وهي اجتهادات جديرة بكل اهتمام . ولعل من باب الحفاوة بها ، أن يعمد المرء الى تفحصها وتحليلها ، والاشارات الى ما فيها من امكانات في دراسة هذا الموضوع الخطير في النقد المعاصر .

* * *

في وقوف الدكتور اليافي عند العملية الادبية ، يشير الى اربعة عناصر هي :

ا ـ مبدع النص او منتجه .

ب ـ النص ذاته او العمل .

جـ ـ قارىء النص او متلقيه .

د ـ الاطار او المهاد الذي يشمل الاطراف الثلاثة ويضمها ، يؤثر فيها كلها ، ويعمل على تشكيلها .

وبعدها يدرس بشكل خاص العنصرين الثاني والثالث : النص والقارىء ، مقرا في الوقت نفسه بأن العنصرين الآخرين : المبدع والمهاد نواجههما متواريين من الناحية العملية . فالاول منهما يتوارى في النص، والثاني منهما يتوارى في القارىء :

« فالنص ـ كما يذكر ـ في التحليل الاخير ان هو الا اثر المبدع وعطاؤه الفني ؛ وما المتلقي لدى النظرة الفاحصة الا موقف معرفي وخلاصة ثقافي او جماع » ؛

أي حصيلة للاطار او المهاد او الثقافة الخ ...

ثم يتحدث حديثا عاما جدا ، لا يستند الى اية معطيات مقنعة بما فيه الكفاية ، عن عوامل ما سماه بالنقلة الواسعة من التركيز على المبدع، الى التركيز على القارىء ، مرورا بالنص ، ودون ان يشفي غليل متلقي نصه . وذاك امر جد طبيعي ، فاليافي ليس مؤرخا للنقد الحديث ، وهو منشغل اساسا بالعنصرين الاساسيين اللذين تصدرا عنوانه : القارىء والنص . ولذلك فانه ينتقل مباشرة الى دراسة مستويات النص المتعددة، أو « مستويات القراءة للنص الادبي لدى متلق واحد او اكثر » ـ مع فهم غير مدقق لهذه المسالة ـ وعلاقة ذلك « بمشكلة الادراك العام والخاص ، الحسي والنفعي ... ذلك ان نقل التجربة او الرسالة ، وابلاغها او توصيلها ما بين الفنان والقارىء عبر العمل ، ثم الاختلاف في فهمها وتقويمها والحكم عليها ، يكاد يتوقف كلية على هذه المشكلة » .

ويبدأ دراسته هذه بالاشارة الى العوامل التي تؤدي الى تعدد مستويات القراءة والفهم والحكم فيتحدث عن :

ا ـ العامل الفطري ؛

ب ـ العامل الاكتسابي ؛

جـ ـ والعامل الثقافي .

ولو شاء الدكتور اليافي الدقة والاختصار لجعلها اثنين . فالعامل الثقافي يدخل في العامل الاكتسابي . ولكن قد يكون للصديق في افراده هذا العامل الثقافي مسوغاته الخاصة التي لم افلح في الوقوع عليها في نصه الذي قراته بتمعن ، واصغيت له بانتباه .

ـ ينتقل بعد ذلك الى الحديث عن بعض الامثلة والتجارب ، فيشير الى مثال مصطفى ناصف وخلافه معه حوله تفسير رمز الطفل في قصيدة لعبد الصبور ؛ والى مثال آخر عن استجابات طلابه لقصيدة « انا والمدينة » لاحمد عبد المعطي حجازي ؛ والى ثالث عن تجاربه مع طلاب جامعتي الجزائر وحلب المستوحاة من تجربة الناقد الانكليزي

المعروف آي ، إيه ، ريتشاردز I. A. Richards في جامعة كامبريدج والتي سجل نتائجها في كتابه « **النقد العملي** » Practical Criticism الصادر عام ١٩٢٩ .

ومن المؤسف حقا ان الصديق اليافي يسرع كثيرا في عرضه لهذه الامثلة والتجارب الشيقة ، محبطا بذلك فضول قارئه ، او متلقي نصه، مخيبا توقعاته في تحليلها ، وتفسير نتائجها ، او الوقوع على ما وراءها من افتراضات ضمنية . ولكن يبدو ان الدكتور اليافي لم يكن يأخذ هذه التجارب مأخذا جديا في تلك الفترة ، وانه يستذكرها اليوم ليوضح لنا بحق ان مسألة استجابات القراء وتفاوتها واختلافها مسألة هامة ، لا سبيل الى اغضاء طرفنا عنها مهما حاولنا .

على اي حال « وبعد هذه الفذلكة الضرورية عن اطراف الموضوع وطبيعة الاستجابة او عملية التلقي ومستوياتها وامثلتها » — وهي فيما يبدو جد ضرورية في رأي محدثنا ، ولولا ذلك لما افرد لها اكثر من نصف حديثه ، وخصها بهذا الاهتمام الملحوظ — .

ولعله ارادها تسوية للارض قبل اقامة البناء ، او رميا تمهيديا بالمدفعية يتلوه الهجوم على النقاط المستهدفة . ولا يستغربن متلقي الحديث مصطلحا كهذا . فللكاتب / المرسل استراتيجيته في مقاربته لقارئه/متلقي خطابه ، مثلما للقارىء استراتيجيته في مقاربة النصوص ، اقول بعد هذه الفذلكة ، ينتقل الدكتور اليافي الى الحديث « عن العنصرين او البعدين اللذين يشكلان صلب البحث المطروح للحوار او جسده . . النص والقارىء » .

وفي حديثه عن النص يستلهم الدكتور اليافي مصطلحي الناقد الايطالي السيميائي المعاصر اومبرتو إكو Umberto Eco اللذين نافح عنهما في كتابه المعروف « **دور القارىء : استكشافات في سيميائيات النصوص**(٤) » ، والذي سبق لصاحب هذه السطور ان قدمه لقارىء

العربية في كانون الثاني من عام ثلاثة وثمانين على صفحات مجلة **المعرفة** في دمشق . وهذان المصطلحان هما النص المغلق Closed Text او النص « الصامت او القفل » كما يحلو له ان يسميه والنص المفتوح Open Text او « المو ّار او اللا منتهي » كما يفضل ان يدعوه .

ويستعين اليافي في تحديده لهذه المصطلحين الهامين **بالعرض المشار اليه ، اضافة الى استبصاراته** . وهو لذلك يتحرك بحذر شديد ، ويميل الى الانشاء على خلاف عادته في الحديث الدقيق الواضح . وهكذا يكتب مثلا :

« انما المهم الا يكون موقف الاقتراب جاهزا ، بل هو حضور وقدرة على رؤية متحررة من التسلط ، لتكون القراءة حركة ، ويكون المقروء نبضا حيا ، وتتابعا متناميا لا يهدأ »

ويمضي به اجتهاده ليضع امثلته الخاصة بواحد منها : وهو النص اللا منتهي ، فيشير الى قصيدة « الارض اليباب » The Wast Land للشاعر والناقد الانكلو ـ امريكي المعروف ت. س. إليوت . ويضيف ملاحظة توضيحية الى مسالة جماهيرية النص . ويحاول ان يميز ـ بنجاح محدود فيما يبدو لي ـ ما بين **النص الجماهيري ، والنص الشعبي** ، حتى يستبعدهذا الاخير من مقولة النص المغلق Closed Text الذي هو في راي الدكتور اليافي ادنى من « النص المفتوح » .

اما في حديثه عن القارىء فانه يميز ما بين خمسة انماط هي :

أ ـ القارىء العادي ؛

ب ـ القارىء المتابع ، او المراجع ، او المبسط ؛

جـ ـ القارىء الدارس ؛

د ـ القارىء الناقد ؛

هـ ـ القارىء الفيلسوف الجمالي .

مقيما تمييزه هذا على اساس وظيفي « شرط ان نتصور ان الانتقال من دور الى دور ، ومن مجال الى مجال سهل وميسر » . ورغم انه لا يفرق ــ فيما يزعم ــ بين هذه الانماط ، ولا يعزو اي بعد قيمي اليهما ، الا انه يخص الناقد باهتمام اكبر من غيره فيتحدث عن وظائفه المختلفة تجاه العمل والاديب والفن ؛ وعن مواصفاته ؛ وعن مستويات روده لفضاء النص(*) تبعا لموهبته او قدرته التي تتكامل فيما بينها لتغني فهمنا للنص . ولا يشترط هنا الا الانطلاق من النص . ولعمري ليس ثمة ما هو اكثر سلامة من منطلق كهذا .

والدكتور اليافي يبيح للناقد امورا كثيرة منها « ان ينقل زمن قراءة النص الى زمن كتابته » او ان يجعلنا نعيش الزمنين معا ــ زمن القراءة وزمن الكتابة . ومنها ان يجرب على النص مختلف اساليب التحليل ، وطرائق الفحص ، وسبل التفسير . ومنها ايضا ان يكتشف في النص دلالات فوق دلالاته . وهو في ذلك يجاري ميخائيل نعيمة عندما **يجعل الناقد مبدعا في غربال** ، ومندرجا في جعله **النقد فعالية خلاقة** ، في **ميزانه الجديد** .

ويؤكد من جديد ان فعل الاستجابة اللا منتهي لدى القارىء يلعب الدور الهام في :

أ ــ تشكيل العمل ؛ اي اثناء عملية انتاجه ؛
ب ــ وفي اعادة انتاجه ، اي اثناء قراءته ، تفسيره .

ولكن دون ان يبين كيف يكون ذلك ، اللهم الا من خلال الاشارة المحدودة الى وظيفة الناقد التي قدمت . ولا اظن ان قارئا **يمكن ان يقتنع من الدكتور اليافي بهذا** .

(*) هذا المصطلح يقابل The Text's Space الذي اقترح له الاستاذ الجليل انطون المقدسي مصطلح الفسحة ، وهو اقتراح جدير بالتبني .

وفي النهاية يتحدث الدكتور اليافي عن « **النص بين جدل القارىء والمبدع** » حديثا فيه من النوايا الطيبة اكثر من التفحص المتأمل المدقق. ولأن من الصعب الحكم على النوايا ، فان القارىء ــ قارئه ــ لا يسعه الا ان يشد على يد الدكتور اليافي ، ولكن ليبحث عن سبيل آخر يشفي غليله ويرضي توقعاته ، التي لم يشأ الصديق اليافي ان يرضيها جميعا . اتراه أراد نصه/بحثه/محاضرته ان يكون نصا مفتوحا يتيح للمعقب عليه او لقارئه ، او لمتلقي خطابه ، هامشا للمشاركة فيه ؟ ربما . ولذلك فاني سوف اضيف مجموعة من الامور التي تغني نص صديقنا من اجل نقل الفائدة الموجودة فيه من طور القوة الى طور الفعل :

ا) على الرغم من تعدد المنظورات التي يمكن ان يتبناها المرء في دراسته لقضية النص والقارىء ، فانه يفضل ان يباشرها من منظور توصيلي ، سبق أن أشرت اليه في تقديمي لكتاب إكو عندما كتبت عام ١٩٨٣ :

« اذا ما رغب المرء بالنظر الى العمل الادبي على انه نص او انشاء يحمل رسالة ما ، فانه ومن منطلق توصيلي يمكن ان يقع على جملة من العناصر التي تسهم في تحقق عملية التوصيل :

ــ **اولها** : هو مصدر هذا النص ــ مع شيء من الحذر ــ او منشئه أو منتجه ، وهو ما يمكن أن يشار اليه على انه المؤلف ؛

ــ **وثانيها** : هو النص الذي انشاه المؤلف او الشيء المنتج والذي يحمل رسالة ما ، يتوجه بها منتجه نحو مستقبل ما ؛

ــ **وثالثها** : هو المخاطب او المتلقي او المستقبل ، وهو الجهة التي تتلقى هذا النص او الخطاب ، او الانشاء .

وحتى تتم عملية التوصيل فانه لابد لهذا المخاطب ان يستطيع تفكيك الرموز والاشارات والعلامات التي تحمل دلالات النص . وبالطبع فانه في

تفكيك هذه الشفرة يلجأ الى اعراف وتقاليد ونظم معينة خلقتها المواريث الثقافية للغة التي يستخدمها النص ، ولا حاجة الى الاشارة هنا الى أن المرسل والمستقبل ينبغي ان يشتركا في معرفة هذه الاعراف والتقاليد والنظم اذا ما اريد لعملية التوصيل أن تتم »(٥) .

ورغم انطلاقه من من هذا المنظور فانه **يغفل عن امر العلاقة بين عناصر العملية الادبية** . فهو لا يحدثنا عن العلاقة القائمة **بين المرسل والمتلقي** .

او **بين المتلقي والنص** ، على سبيل المثال لانه اساسا يفضل ـ فيما يبدو ـ أن يتحرك ضمن منظور تقليدي في فهم **طبيعة** كل من عناصر العملية الادبية ، **ووظائفها** ، **والوشائج** القائمة فيما بينها . وهكذا يقوده الحديث عن انماط القارىء الى الحديث عن وظيفة الناقد ، ومن منظور تقليدي أيضا .

ب) لقد اشرت فيما مضى الى استلهام الدكتور الياقي لمصطلحي اومبرتو اكو (النص المفتوح ، والنص المغلق) وهذان المصطلحان مرتبطان اساسا بأعمال محددة ناقشها الناقد الايطالي في كتابه المذكور آنفا ؛ ولا يمكن سحبهما على جميع الاعمال الادبية . خاصة وان إكو نفسه يقترح جدلية محددة بين استراتيجيات مقاربة النوعين المختلفين للنصوص .

حـ) ان حديث الدكتور الياقي عن مقولة القارىء يصدر عن فهم ضيق جدا لهذه المقولة ، لان الانماط الخمسة التي يشير اليها تدخل جميعا فيما يمكن تسميته **بالقارىء الواقعي** ، الفعلي . ولكن ماذا عن **القارىء الضمني** الذي يفترضه الكاتب ، والذي يكون حاضرا ابدا في نفسه عندما ينتج نصه ؛ وماذا عن **القارىء المثالي** الذي يطمح الادباء جميعا الى وجوده عندما يفكرون في جدوى ادبهم ؛ وماذا اخيرا عن **القارىء المجرد عن الزمان والمكان**، الذي يحلم به كل مبدع . ان جميع هذه الانماط بعيدة تماما عن ذهن الدكتور الياقي ، رغم أن تأثيرها في عملية انتاج النص اوضح من ان تستبعد بسهولة .

د) كذلك كيف يمكن قياس استجابات القارىء الفعلي بانماطه الخمسة التي ذكرها الدكتور اليافي ، صحيح انه يمكن ان يشير الى النصوص النقدية ، ولكن ماذا عن الوسائل الاخرى ؟ ان الصديق اليافي يلوذ بالصمت عندما يأتي الامر الى هذه القضية .

هـ) لا اظن ان اقوى نقاط بحث الدكتور اليافي تاريخه للتحول من الاهتمام بالمبدع ، الى الاهتمام بالقارىء . لأن بداية الاهتمام بهذا الاخير لا تعود الى نهاية الستينات . وقد بدأت أول ما بدأت في أوربا بشكل عام، والمانيا بشكل خاص . ولا يعني هذا بالطبع ان الاهتمام بالقارىء / المتلقي اهتمام حديث ، فهو قديم قدم النقد نفسه . ولكن اعطاءه الاهمية التي نراها اليوم بدأ في نهاية الستينات على يد هانز روبرت ياوس Hans Robert Jauss ،وولفانغ ايزر Wolfang Iser ، ونورمان هولاند Norman N. Holland وجورج بوليه Georges Poulet ، وميشيل ريفاتر Michael Riffaterre وجوناثان كولر Jonathan Culler وستانلي فيش وغيرهم .

* * *

يشير نزار قباني في حديثه عن تجربته الشعرية الى أن « الشعر خطاب نكتبه للآخرين ، خطاب نكتبه الى جهة ما ، والمرسل اليه عنصر هام في كل كتابة ، وليس هناك كتابة لا تخاطب احدا ، والا تحولت الى جرس يقرع في العدم »(٦) .

ان جدوى الكتابة امر يتوقف على استقبالها ، وهو امر يعرفه اي مبدع ويعيره كل الاهتمام سواء اعترف به ام ادعى انه لا يعنيه ، وانه انما يكتب لمجرد الكتابة . ولا شك ان محاولة الدكتور اليافي محاولة جادة في الطريق نحو اقناع النقاد العرب المعاصرين باهمية دراسة دور المستقبل

في تحويل التجربة الفنية من طور القوة الى طور الفعل. ولكن من الضروري لهذه المحاولة ان تنطلق من افق معرفي متقدم يفيد مما تقدمه الدراسات النقدية المعاصرة في العالم، ومن المنظور السيميائي Semiotical Perspective حيث يتم التعامل مع العملية الادبية كنظام علامات غايته انتاج المعنى ، انتاج الدلالات ، فتدرس عملية الانتاج هذه من جهة ، وكيفية تحقق هذه الدلالات لدى المستقبل / القارىء من جهة اخرى .

آب ١٩٨٦

جامعة دمشق

* * *

هوامش :

(١) Stanley N. Fish
Is There A Text in this Class ? Harvard University Press, 1980, P. 21

(٢) د. نعيم اليافي ،
« القارىء والنص » ، المعرفة (دمشق) ، السنة الخامسة والعشرون العدد (٢٩٤)، آب ، ١٩٨٦ ، ص (٤١ ــ ٦٢) .

(٣) انظر ــ عبد النبي اصطيف ،
« قراءات في متانية في النقد المعاصر : في البحث عن دور للقارىء »، المعرفة (دمشق)، السنة الواحدة والعشرون ، العدد (٢٥١) ، كانون الثاني ، ١٩٨٣ ، ص(٢٤٤ــ٢٥٠).
ــ ادونيس ،
« من ادب الكاتب الى ادب القارىء » ، الكرمل ، العدد (٥) ، شتاء (١٩٨٢) ، ص (١٥٤ ــ ١٦٢) .

(٤) مكتبة جامعة هوتشونسون ، لندن ١٩٨١ . وانظر عبد النبي اصطيف ، المرجع السابق ، ص (٢٤٨ ــ ٢٤٩) .

(٥) عبد النبي اصطيف ، المرجع السابق ، ص (٢٤٤ ــ ٢٤٥) .

(٦) نزار قباني ، قصتي مع الشعر ،
بيروت ، ١٩٧٢ ، ص (١٥٧) .